(Arab)
PJ7808
.S5xZ53

(Arab)PJ7808.S5xZ53
Ibrahim, Muhammad 'Abd al-Fattah
(Ahmad Zaki Abu Shadi)

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 060544408

أحمد زكي أبو شادي

جولة مع الشاعر الناثر أستاذ
الجيل الذي أخرجته مدرسة
أبولو في كتاباته الأدبية .

بقلم
الأمير الاي أركان الحرب
محمد عبد الفتاح ابراهيم

مايو ١٩٥٥

Ibrāhīm, Muḥammad
Abd al-Fattāḥ

أحمد زكي أبو شادي

جولة مع الشاعر الناثر أستاذ
الجيل الذي أخرجته مدرسة
أبولو في كتاباته الأدبية .

بقلم
الأمير الاي أركان الحرب
محمد عبد الفتاح ابراهيم

مايو ١٩٥٥

وكان أبو شادى أمة وحده ..

كان مجموعة رجال فى رجل ، كان مبرزاً فى كل نواحى الحياة على تباين ألوان النواحى التى ساهم فيها بعمله وقلمه .

كان طبيبا ناجحا . . . وكان كيميائيا فذاً . . .

كان نحالا عالما بالنحل ، وكانت دراساته فى النحالة مراجع للأخصائيين فى هذه الصناعة .

وكان تعاونيا من البواكير الأولين الذين عملوا من أجل التعاون وكان أستاذاً محاضراً يذكر طلبته مالقنوه منه من علم بأطيب الذكريات .

ولكن أبا شادى كان قبل هذا كله شاعراً نجح فى كل ضروب القصيد ، ينظمه أسرع مما تصفه آلة الطباعة . . . حتى عيبت عليه كثرة الانتاج ، ولكن أبا شادى لم يكن ينظم عن صناعة ، بل إنه ينظم من وحى احاسيس نفسه التى كانت مورداً لا ينضب معينه .

كان أبو شادى كاتبا كأقوى ما يكون الكاتب الحكيم . . . ، كتب فى الأدب والتاريخ والدين والاقتصاد ونجح فى كل ما عالج من موضوعات وأخطىء التوفيق فيما رمى اليه من أهداف .

وكان أبو شادى أديبا ناقداً ، وكانت كتاباته فى نقد الشعر والنثر تعالج المبادىء والاصول فكان ما كتبه دعامة المدرسة الحديثة فى النقد الأدبى .

وكان أبو شادى دعامة مدرسة (أبولو) التى قدمت عدداً من الشعراء

الشبان الأفذاذ كالجراحى والهمشرى وعتيق والسحرتى وعبد الغفور والبحراوى ومختار الوكيل والصيرفى وصالح جودت والشابى وغيرهم وغيرهم .

وكانت مدرسة (أبولو) هى التى قدمت الشاعرات الثائرات من نسيج لم يعرفه الأدب المصرى من قبل، وكانت فى مقدمتهن الشاعرة القصاصة الأستاذة جميلة العلايلى صاحبة مجلة (الأهداف)

وعاصر أبو شادى الشعراء الأفذاذ كمطران وشوقى وحافظ وصبرى ومحرم وعبد الرحمن شكرى ، وقدم الكثير من انتاجهم الأدبى الذى لم يكن ليرقب الضوء لولا مجلة (أبولو) ، ولولا هذا الاكبار من أبى شادى للشعر والشعراء ، الاكبار الذى كان يدفعه لأن يقتطع من قوته وقوت أولاده، ليخرج مجلة أبولو ومن بعدها (الامام) للقراء فى مجلدات ضخمة، جمعت نتاج الشعر الأدبى وثمار الأفكار فى الأدب فى أكثر من قطر ، ولعدد من السنين، دون معاونة من هيئة أو حكومة .

كثير هو ما فعله الرجل الذى كان يكتب بوحى من روحه حتى أفنى هذه الروح ، وكان يكتب فى كل صحف الشرق العربى والمهجر دون أن يمل الكتابة ، ودون أن يفكر فى مال لأنه كان يؤدى رسالة آمن بها . . .

وذهب أبو شادى كما جاء .

وجل من كتب لنفسه الخلود .

* * *

وبعد : هـذه صفحات كتبت فى أعقاب وصول نبأ نعى الصديق الوفى أنق بأنهـا وإن عبرت عن مشاعر نفسى لوفاته وأوضحت مدى الهزة العنيفة التى أصابتنى لفقـد الرجل الذى كنت آمل أن يقول فى وفاتى رثاء من شعره، فكان من قضاء الله أن أكتب أنا هذه السطور فى الحديث عنه، ولكنى أعتقد أن هـذه الصفحات لا تكفى للاشارة بفضل الرجل، وفى التعريف بأدبه وعلمه فى الصورة التى تجعله أكثر من كتاب مدرسى مبسط . . .

ان أبا شادى يستحق من أدباء هذا الجيل الذى أنشأته جماعة أبولو أن يكتبوا عنه عشرات الدراسات فى عشرات المجلدات وأؤمن بأنهم فاعلون ، فالى رحمة الله هو وعزاء للناطقين بالضاد .

إن الشعراء يمنحوننا النور ويعطون الأفصاح لأغراضنا الغامضة وأحزاننا المبهمة مع حد تعبير اناتول فرانس ، فما أحوجنا اليهم فى الأزمات خاصة لتزداد روحانيتنا قوة ، وهل يمكن أن تستغنى الحروب عن المعنويات مهما عظمت الماديات؟ ! !

ابو شادى فى (أدبى)
مارس ١٩٣٦

الرجل والعصر الذى نشأ وعاش فيه

ولد أحمد زكى أبوشادى والقرن الماضى فى شيخوخته يحبو نحو نهايته، ومع هذا فقد كان لزاما أن يضفى على نشأته شيئا من طابعه، فقد اجتمعا مع التفاوت فى السن، أولهما فى آخر السلم تنحدر شمسه للمغيب، وثانيهما فى أول الدرج يتطلع لشمسه التى تشرق فوق الأفق، هذ يتوكأ على عصوين من عظة واعتبار، وذاك يشتد ساعداه ويقويان بما يناله من تجارب الحادثات التى تبدو مسرعة فى حياته وفى حياة الجيل الذى هو منه. فقد أثرت صور القرن الماضى فى حياة الكثيرين من أبناء الشرق العربى ما فى هذا من شك، ولكن كان أثرها فى أبى شادى كبيرا لأنها أثرت فى حياته وخلقه وأدبه وعلمه وشاعريته، كان محافظا فى غير تزمت، وكان حر الفكر فى غير إسفاف، وكان وفيا عف اللسان والقلم، وكان انسانا حتى جعلته انسانيته كالشمعة يحترق لينير الطريق لسواه.

وولد بالقاهرة حاضرة البلاد مع صلات على ما يبدو تربط أهله بالريف، فكان من الضرورى أن تؤثر فيه البيئتان، وأن يكون لكل منهما الطابع الذى يصقل جانباً من نفسه، ومن أحاسيس وانفعالات هذه النفس.

وولد لأب عربى الأصل مصرى المنبت ، وأم انحدرت من دوحة لها تاريخها ، فجاء كريم العنصرين من بيتين يتصفان بالأدب والعلم، فكان من الضرورى أن يكون لهذا فى جملته أثره فى التوجيه الأول ، وأن يكون دعامة النضوج المبكر ، بل وأن يجعل منه ذخيرة دائمة تتوالد عبقريتها وتتكامل، لا أن تكون بارقة طارئة تذوي وتضيع، وتتلألف كل هذه الصور اللامعة المتباينه الألوان فتصقل روح الشاعر وتنظم تفكير الكاتب ،. . . وتظهر ولا أقول تصطنع. . . الفنان . . .

ولد احمد زكي أبو شادى فى التاسع من فبراير عام ١٨٩٢ للمرحوم محمد أبو شادى (بك) المحامى من البواكير الأولين فى صناعة المحاماة الذين درسوا أصلا فى الأزهر الشريف، وكان زميلا لسعد طالبا وسياسياً وعاملا فى الصفوف الأولى من أجل الوطن .

وأمه المرحومة أمينة نجيب كريمة المرحوم مصطفى نجيب الكاتب الشاعر الالمعى ، زميل مصطفى كامل ومحمد فريد فى الحزب الوطنى، وخدين اسماعيل صبرى وأحمد شوقى فى المودة الأدبية والروح الشعرية ، كان قطبا من أقطاب الوطنية الذين اعتمد عليهم الحزب الوطنى فى كفاحه الأول ضد كل القوى لإثارة معنويات الشعب ، ولإحياء الوعى القومى الذى كانت قد أيقظته الثورة العرابية قبل أعوام ، وكان كاتبا ألمعياً تطالعه فى (حماة الإسلام) و (أحلام الأحلام) فتجدك أمام كاتب من أفصح كتاب عصر النهضة للكتابة العربية أيام العباسيين ، وتطالع شعره المنبث فى كتب الأدب فترى شاعرية بليغة حية لا تزال غضة ناضرة .

أبو شادى

فى الأربعين من عمره

وإذا كان الرجل كطابع العصر الذى عاش فيه شغل بالوصف والرثاء فله فى التوجيه لنبذ التفرنج الأعمى والاحتفاظ بتراثنا الخلقى والتقليدى الصور الرائعة الطريفة .

فلم يكن غريبا أن يؤثر هذا كله فى الصبى الذى كانت كل البيئة التى تحيط به توجهه إلى العلم والأدب ، ولم يكن غريباً أن يجد نفسه من البداية ميالة للتحليق فى أجواز الفضاء . . وأن يقيد هو أحاسيس هذه النفس، وكان الأقرب لهذا التقييد أن يجىء نظما فكان أبو شادى شاعراً من فجر حياته ، ولكنه شاعر من نسيج وحده ، فهو لا يعنى بالرنين الموسيقى بقدر ما يعنى بوضوح القصد

وأذكر هنا شيئا سمعته منه رحمه الله .. هذا أنه وهو فى أولى سنى دراسته بالمدارس الثانوية كان يحرر فى صحيفة (الظاهر) وانه أعد مجلة قصصية باسم (حدائق الظاهر) ، وإذ لم تخنى الذاكرة ، أن هذا كان فى عام ١٩٠٥ أى وهو فى سن بين الثالثة والرابعة عشر ، وكان هذا مظهر النضوج المبكر .

وتتوالى الأيام فيخرج كتاباً وسم بعنوان (قطرة من يراع فى الأدب والاجتماع) ثم ينشر ديوانه الأول (أنداء الفجر) .

وبعد أن أكمل دراسته الابتدائية والثانوية التحق « بمدرسة » الطب بالقاهرة ، ويقول أبو شادى أنه كان جد شغوف بدراسة الطب ، وليس فقط للعلم بل كفن ، وليس فى هذا أى عجب ، ذلك لانه عاش طوال هذه السنوات من حياته مؤمناً بفن الحياة .

ولا تمر به الحياة رتيبة ، فان هذه النفس التى تحس وتشعر وتنظم القصيد مبكرة يحب أن تدرك معانى الحياة فى بكورة مماثلة ، وعرف صاحبنا الحب . ، وقد كان هذا الحب هو المحرك التالى في مسار حياته ، فقد أحب إحدى قريباته وتستطيع عند دراسة أبى شادى الشاعر أن تسير فى صحبته فى مختلف مراحل هذا الحب وأنت تناقش ديوانه (زينب) لتدرك مدى هذه المحن النفسية التى أصابته .

وكانت هذه الصدمة التى أصابته بفشله فى حبه الأول ولا محل للحديث عن هذا هنا ، فان هذه المرحلة من حياته يحسن أن يتناولها الزميل الذى سيعرض بالدراسة لشعر أبى شادى وعلى الأخص لديوانه (زينب) .

ونصح ابو شادى بالرحلة لخارج البلاد، فزار اليونان وتركيا عام ١٩١١ ، ولكن بلا فائدة لصحته ولقلبه المحطم ، وأخيراً اضطر للرحيل إلى لندن فى ربيع عام ١٩١٢ ليكمل دراسة الطب ، وكان من الممكن أن يعود ابو شادى بعد اعوام خمسة ، ولكن ابا شادى عاد عام ١٩٢٢ بعد غياب عن مصر طال لعشرة اعوام أو يزيد ، ولكنه لم يعد مفكراً فى بكورة نضوجه بل عاد مكافحاً من اجل الإنسانية ومن أجل المثالية (راجع ابو شادى الشاعر — دراسة نقدية للدكتور اسماعيل احمد ادهم بالانجليزية عام ١٩٣٦) ، وكانت دراساته حتى التى عن هواية تسير به إلى الأعماق ليتخصص فيما يدرس ، وهذا ما كان من أمره عندما درس (الايقلطوريا) تربية النحل العملية، درس العلم عن هواية فنجح

وتخصص حتى كانت كتبه ومقالاته عن النحل مرجعاً دراسياً للاخصائيين والهواة على السواء . .

وكان من الضرورى ان يتصل ابو شادى بالأدب الانجليزى القديم والمعاصر ،وراح ينقل الكثير نثراً وشعراً ، وأكسبته هذه الدراسة النظرة العلمية التعمقية الصحيحة . . ، ولكن أهم ما كان لهذه الدراسة من تأثير هو أنها طبعت روحه بالواقعية .

وفى عام ١٩٢٢ بعد غيبة لعشر سنوات كاملة عاد ابو شادى إلى مصر مصطحبا زوجته الفاضلة التى كان لها اثر كبير فى حياته ،وفى مشاركته التضحيات المالية اشباعا لجهوده الأدبيه، وكان من الضروري أن يظل أبو شادى طليقا يعمل فى معمل خاص لأبحاثه فى الطب المعملى، ولكنه اشتغل بالمعامل الصحية موظفا حكوميا . ، وكان مجدا بطبعه ، فجعل لهذة المعامل طابعها العلمى الناجح، وراح يتنقل من مكان إلى مكان يفتتح المعمل الفرعى، وينظم عمله وعماله ، ثم يتركه لغيره حتى رست به السفينة إلى معمل الاسكندرية بالمستشفى الأميرى حيث بقى طويلا ،وفى كل هذا يتطور العمل . . وتتضاعف المهام والمسئوليات . . وهو كما هو موظف فى الدرجة الرابعة أو الثالثة لو كنت أريد الحيطة حتى لا أخطىء التقدير، وكان هذا بتأثير طابع العصر الذى عاش فيه.

كان يقف حتى يطول به الوقوف ، فان وثب ، كان كل ما يناله علاوة دورية ، أما أن ينال حقا او حتى يحظى بتذكره منسيا فلا ... ثم لا ، وكل هذا لأن الرجل كما قلت عنه مره عند حديثى عن ديوانه

(الكائن الثانى) انه جاء قبل العصر الذى كان يجب أن يجىء فيه، . أو تأخر عن العصر الذى كان من حسن جده لو جاء فيه .

والواقع أن العصر الذى نشأ فيه أبو شادى والذى انساق مع الايام إلى العصر الذى عاش فيه سنين نضوج واكتمال رجولته يستحق منا الأحاديث الطوال، الأحاديث الطوال عن المؤثرات الأدبية التى كونت الشاعر وأثرت فيه وتأثرت به، ثم الأحاديث الطوال عن المؤثرات النفسية التى هزت من هذا الكاتب الشاعر وإن كان دور الناس فى هذا كله سيجىء عندما تنظر إلى آثاره الأدبية على التخصيص فى الأغراض التى كانت لها .

وتفتحت عينا أبى شادى على الحياة والشعراء الفحول أمثال البارودى وصبرى وحفنى ناصف وشوقى وحافظ ومطران يملأون دنيا العرب والعربية نظما، يأخذون من الأدب العباسى القبس الذى يشعلون منه الأضواء التى تنير لهم الطريق، ونهل ابو شادى من هذه الموارد، ولكننا نلقى فى أولى ثمار قصيده طابع مطران فكانت سيطرة لبثت حينا حتى تحرر منها وكان له طابعه المميز .

فاذا قلنا إن فى شعر أبى شادى الكثير من روح أستاذه مطران (فيه هذا الحرص على الدقة فى المعنى، وفيه هذه الثورة الواضحة على اللفظ والرنين الفارغ، وفيه هذه العناية الفائقة بالناحية القصصية التى بعثها مطران فى هذه اللغة)، إذا قلنا هذا فمن الضرورى أن ننظر إلى الناحية التى تميز بها أبو شادى مستقلا عن مطران، استقل بروحه

الصوفية ، وبقلبه العالمى الكبير ، وبحبه الشامل للطبيعة وما فيها من مفاتن ومباهج .

تميز ابو شادى بنظره إلى الكائنات والظواهر الكونية نظرة واحدة فلا اختلاف بينها ، فقد ينظم قصيدة طويلة فى قطة أو دجاجة لانه ينظر اليها نظرة الفيلسوف .

وتميز ابو شادي بقصيده فى الحديث عن العلم والنظريات العلمية وديوانه (الكائن الثانى) يحوى خمسا وعشرين قصيدة توضح هذه الصورة التى تميز بها عن كل الشعراء المعاصرين

ونستطيع أن ندرك علة تأثر ابى شادي بمطران وتتلمذه على انتاجه فى فجر حياته الأدبية عندما تعرف أن الشعر العربى كان فى ركود أليم طوال القرن التاسع عشر ، إلا انه ظهرت فجأة فى النصف الثانى من ذاك القرن عبقريتان بعثتا فى هذا الشعر حياتين جديدتين ، كانت احدى هاتين العبقريتين هي عبقرية البارودى ، اما الثانية فعبقرية مطران ، اما عبقرية البارودى فقد أحيت الشعر الكلاسيكى ونفحته بخواصها موضوعاً ، وأما عبقرية مطران فقد مثلت للعروبة معنى الأدب العالمى فى طلاقة جريئة ، وعلى عبقرية مطران تتلمذ المجددون المعاصرون ، ثم نشأت مدرسة ثالثة متأثرة بأدب البارودى وروح مطران ، وهى مدرسة شوقى وصبرى التى أحبها المصريون خاصة لأنها جمعت بين الحلاوة الموسيقية التى يعبدونها وبين التجدد العصرى المعتدل الذى يستطيعون مجاراته ، ماداموا ينفرون من الركض البعيد .

وكان أبو شادى من المجددين المعاصرين بل هو فى مقدمتهم ... ، فلم يكن غريباً أن ينشأ فى هذه المدرسة حتى تتكون له شخصيته وذاتيته المستقلة ، فيكون وحده مدرسة ويكون أستاذ جيل جديد من الشعراء النابهين .

وكان الطابع المصرى فى الشعر العربى يتكون فى بودقة التجارب والأحداث ، ولست أقصد أن الشعراء المصريين قد عدلوا من الاوزان أو الأقيسة للقصيد ، وإنما اقصد انهم جددوا فى الصور والأخلية ، ووجدوا في الحياة المصرية والآثار المصرية والأحداث المصرية مايستلهمون منه النظم .

وإلى جانب هؤلاء كان هناك بعض الأدباء اللامعين من الكتاب قد اتجهوا للغرب ، وأخذوا بأسباب الترجمة ونقل تراث الغرب ، وعلى الأخص فى الأدب القصصى وبعض دراسات العلوم الاجتماعية .

وبين هذا وذاك كان هناك نهضة فكرية يتولاها نفر من النزلاء المواطنين يصدرون عدداً من الدوريات الأدبية التى كانت تجمع بين أصالة التأليف وبراعة الاختيار والنقل .

وكان من الطبيعى والناس عبيد لما يقرأون ، أن تتواجد أخلاق وعادات ونظم متنافرة تظل كذلك حتى تستقر الأوضاع ويتشكل الطابع المنسق فى كل شىء .

وكان العصر عصر انتقال فى الأدب والسياسة والاجتماع ، وبدأت مدرسة القاهرة تتبلور لتأخذ طابعها الحاضر بين الناطقين بالضاد ، ولتكون

مركز التثاقل فى الثقافة العربية ، سيما وأن الربع الأول من هذا القرن الذى يعيش فيه كون حصيلة طيبة من الكتاب النابهين ما فى هذا من شك .

وإذا كانت حركة الطباعة أو كان مستوى المطالعة أكثر نسبيا فى بعض البلاد العربية عنه فى مصر ، فان الأدباء المصريين نالوا مكانة ونالت كتاباتهم تقديراً كبيراً ، مما له أثره فى الإجادة .

على أن أبا شادى خرج من فترة الانتقال هذه بطابعه الخاص المميز ، ولم تكن الكتابة صناعته التى تقوم بأوده ، وأبو شادى فى الواقع نظر إلى الكتابة على أنها أسمى من أن تكون حرفة فهى رسالة ، رسالة فى عنق الأديب الكاتب من حق الجيل الذى يعيش فيه والأجيال التى تجىء بعده .

إن أبا العلاء هو الذى حصر الدين فى روح الإنصاف لجميع الناس (وكذلك فعل محيي بن العربى وأمثاله من متصوفة الإسلام ومفكريه الإنسانيين) ولم ير أن النفس تستطيع أن تتحكم فى الغرائز الرئيسية بل هي التى تتحكم فيها .

أبو شادى فى مقال (من أدب الفلسفة)

الامام سبتمبر ١٩٣٦

الشاعر الثائر

والواقع أن ابا شادى كان من الضرورى وقد قدمت لك هذه البيئة الأدبية التى نشأ فيها ،وهذه العوامل النفسية التى أحاطت به ، ثم هذه الغرزمة التى بدأها صبياً يافعاً متأثراً من هذه وتلك ، كان من الضرورى أن تتفتح أمامه آفاق الحياة وأن يقوى قلمه ويخصب إنتاجه

وكان من الممكن أن يتجه أبو شادى بكلياته وجزئياته ناحية واحدة ، وكان من الممكن أن يكون أبو شادى شاعراً أو كاتباً ،أو أن يخرج من دراسته العالية حاملا أجازة دراسية تتصل وثيقا بالكتابة والتحرير ثم يعمل صحفيا مع الاستناد الى صناعة كالمحاماة أو تدريس الأداب ، كان هذا هو الطريق الأقرب فى الحياة .

ولكن أبا شادى كما قلت لك كان مجموعة رجال فى رجل، وكان له جانبه العلمى وجانبه العملى وجانبه الأدبى ، وكانت كل هذه الجوانب تدور حول نفسها بسرعة حتى لاتستطيع مهما دققت النظر أن ترقب جانباً واحداً يطل عليك ثابتا تراه دائما كلما تلفت من حولك باحثاً عنه تواقا الى لقائه، ولعل تعدد جوانب الشخصية ... ثم تعدد نواحى الجانب الأدبى منها ،وهذه الطاقة على الاجادة فى كل هذه الجوانب الى

حد أشكر للصديق الوفى الدكتور مختار الوكيل أنه نبهنى إلى تسمية أبى شادى (بابن سينا القرن العشرين) وهو خليق بهذه التسمية دون ما مبالغة أو اسراف ، لعل هذا كان من عوامل اتعاب الدكتور احمد زكى أبو شادى نفسيا ، واتعابه فى حياته ، فقد أثار حفيظة محترفى صناعة الأدب ، عليه ودفعوا بعض الوثابين الدفاعين نحوه ، ولست أدرى للشر أم للخير كانت هذه فى الجوانب المتعددة للرجل العبقرى الذى سبق جيله

***

وتميز ابو شادى بأنه بجيد الصناعتين ، النثر والنظم ، ولكنه كان اقرب بقلبه وتفكيره الى نظم القصيد ، ولهذا نوقش ابو شادى على انه شاعر ، ثم أن جل إنتاجه الأدبى كان فى الشعر ونقد الشعر ، وعندى ان أبا شادى الكاتب الناثر كان قويا كأبى شادى الشاعر برغم أن مانشر له من النثر فى كتاب خاص كان بالانجليزية لا بالعربية وبرغم أن الكثير مما سجله هو من نثره فى مجموعتى (أدبى) و(الامام) كان بحوثاً قصيرة ، ولكن من الضرورى أن لا يغيب عنى هنا بأن أبا شادى كان يقصد هذا الايجاز فان الكثيرين من المطالعين لاطاقة لهم بقراءة المطولات والبحوث الضافية ، ولكن هذه الدراسات القصيرة فيها إيجاز واعجاز فهى واضحة العرض دقيقة التقديم

إن فى نثر أبى شادى السطور التى تقدم من الآراء والمبادىء مايمكن ان يعرض فى صفحات ، ولكن عرضها فى سطور لم يقلل من قيمتها بل فى رأيى أنه قد زاد من روعتها .

والشيء الآخر هو أن ابا شادى كما قلت لك كان يعد نفسه للشعر، وكان يعمل على أن يؤدى رسالته الأدبية عن طريق نظم القصيد فجاء أغلب نثره فى هذه التسجيلات العاجلة لآرائه أو تعليقاته على مايقرأ، ثم فى نقده ثمار الأفكار ولهذا فانه كان ينشر مالم ينشره من نثره فى مجموعته (أبولو) تحت عنوان (خواطر وسوانح) فى مجلة (أدبى) ثم فى (الامام) وغيرها وغيرها

يقول الدكتور مختار الوكيل فى كتابه رواد الشعر الحديث فى مصر (١٩٣٤) عن الدكتور الراحل فى ص ٥٢ / ٥٣ (وهكذا أبو شادى لايأبه للقشور ولايقف عند بهرج الصناعه ولكنه ينحدر كالسيل الجارف من قمم الجبال، حاملا معه الرمال الدقيقة والجواهر الكريمة وهو يكتسح كل مايعترضه فى الطريق ثم ينبسط أخيرا على أرض لوادى فى هدوء، شعره سيل عرم مافى ذلك شك، فهو يتناول فيه كل ماوسعت الحياة من معان ورموز، وينقل على لوحته بريشته السريعة الحركة صورة العيش السافرة والمقنعة قاطبة، وتجيء بعض صوره لذلك غامضة أو ناقصة الخطوط او مظلمة الالوان ولكنها تبقى بعد ذلك كله ذات طابع خاص مستقل كل الاستقلال عن سواها من الصور التى قد تعترض سبيلك فى حياتك الخاصة، إن هذا الفنان يعيش عيشة يمزج فيها بين الحقيقة والخيال، وماشعره الا المعبر الصادق عن حياته جميعها فى أطوارها وظروفها المختلفة، وليس عبثاً هذا الانتاج الهائل الذى تفيض به هذه الشاعرية فى كل ظرف وفى كل مكان)

وهو (لايحجم عن نشر كل ماقاضت به بديهته الكريمة فى الصحف والمجلات والدواوين غير مفضل قصيدة على أخرى ، فكل نظمه حبيب إلى نفسة عزيز لديه). وأنا أقول عن أبى شادى الكاتب أنه كان حسن العبارة أنيق الأسلوب مع البساطة يجيد اختيار اللفظ وتخريج العبارة منطق البحث والدراسة ، فى كلماته رصانة واتزان

وابو شادى الكاتب يبدو هادئا دائما فى نقده لآثار الأدباء فى غير إسراف فى المديح والإطراء ، ويوجه ولا يوجع ، ويرشد فى غير إيلام فان فعل لم يترك الجروح دون التئام .

تجىء كتاباته دائما فى سلسلة متصلة من الآراء والمبادىء ، ولعله قد اكتسب هذا من دراسته العلمية ومن بحوثه العملية ، فلا تجىء فيها فقرات مبهمة المعنى غير محدودة الهدف

وهو سريع الكتابة سرعته فى نظم القصيد ، وكان سريع الهضم لما يقرأ ، ولكنه لم يكن يفعل ما يفعله حتى اليوم بعض المتصدرين زعامة الأدب من أن ينسبوا مايعيدون عرضه لأنفسهم على أنه من وحى أقلامهم ، فأبو شادي لم يكن ليتردد أن ينسب الفضـــل لذويه ، ويقرن الرأى والبحث باسم صاحبه والمرجع الذى وجده فيه .

وهو واقعى فيما يكتب ، ولا يتردد فى المجاهرة برأيه ثم الدفاع عنه ، دون أن يمل الكتابة أو يتراجع عما آمن به ذاك لأنه لايكتب أصلا إلا عن عقيدة وبعد إعمال الفكر

وأبو شادى واسع الصدر هادىء النفس إلا إذا كان البحث الذى

يكتبه يتصل من قريب أو بعيد بحرية الفكر فى صورة ما ، فانه يبدو إذ ذاك كالبحر المضطرب أو البركان الهائج

ولكنه لا ينحدر من قمة الجبل الى السهل المنبسط فيفقد فى انحداره الكثير من حدته بل يظل يغلي كالمرجل يقذف بالحمم دون أن يسف ، والغريب أن قلمه لم يعرف السقطات التى عرفها الكثيرون من كتاب الثلث الأول من هذا القرن فهو لم يسف ولم يعرف أدب القذف قط

وقد عرض أبو شادى لكل الألوان فى كتاباته بالعربية والانجليزية ، وان كان لم يحظ فى الأولى كما حظى به فى الثانية من تقدير الكتاب العالميين .

وكان أبو شادي يعتز بنثره اعتزازه بشعره ، ولهذا أخرج مجلة (أدبى) التى أوقفها على نشر مايكتب إلا فيما ندر من بحوث كتبها أصدقاء القلم والروح ووجدها تستحق النشر للعرض .

***

ولم يكن أقوى من أبى شادى عندما يتحدث عن قداسة الفكر لأنه كان يحس بأن هذا واجبه لذاتيته قبل أن يكون ذاتية الفكر نفسه ، فقد كان أبو شادى يحارب من أجل الفكر فى معركة تألبت فيها قوى كبيرة ضده

وكان الذى يضيق به هو أنه إن كانت الحرية الفكرية مقدسة فى كل عصر من العصور فانها أشد قداسة فى عصر الديمقراطية الصحيحة التى كفلها الدستور بنص صريح ، ولايجوز محاربة الرأى العلمى إلا

رأى علمى مثله أكثر دقة وأعمق بحثا وأقرب الى الصواب والمنطق ، وإلا كان معنى هذا قتل النهضة الفكرية فى المهد ومحاربته للذاتيـــة الانسانية التى يجب أن تعاون لا أن تحارب، وأن تناصر لا أن تقاوم .

ومعركة (الفكر الحر) معركة قديمة خاضها العلماء والمفكرون منذ أيام سقراط . حتى أيام فولتير وتولستوى وجان جاك روسو

ولست أقول أن الدكتور زكى أبو شادى كان أكثر من واحد على الطريق ، واحد من عشرات بل المئات الذين كافحوا من أجل حرية الفكر الادبى والعلمى، ولهذا لم يكن غريبا بالنسبة إليه... أن ينال بعض ماناله الذين سبقوه فى هذ الدرب بالرغم من تفاوت الأسلحة فى الكيد لهم والكيد له .

وقد لا يكون الإيلام فى هذا الذى واجهه واحتمله حتى ضـــاق أحياناً باحتماله ، ولكن الإيلام كان فى الواقع فى أن طابع العصر كان من الضروى أن يتحرر من صور الماضى وسيئاته .

بين القومية والإنسـانية

وللتحرر الفكري عند أبى شادى مَظهر واضح فى نقاشه للأمرين القومية والانسانية ، وليس غريبا أنه كان ينظر إلى (القومية) على أنها خير وشر .، خير عند ماتتجه إلى التضحية من أجل المجتمع . ، ولكنها سرعان ماتكون شرا عندما تتجاوز الحدود المعقولة لتكون تكتلا من الفرديه الانعزالية .

وكانت المثالية السياسية عنده تكمن فى إعطاف فكرة الحكومة العالمية مع تبادل الثروة بين الأمم على أن يتولى السيطرة على اتجاهات الانسانية كلها نفر من الاخصائيين فى جهاز إدارى عالمى ، وهى أراء قد تكون مثالية .. وقد تخيلها المؤرخ الانجليزى هـ . ج . ويلز ولكن الذى يعنينى هنا هو أن أباشادى كان ينظر الي الأمر فى ضوء اختباراته فى (مملكة النحل)

ومن الواضح أن أبا شادى ديمقراطى بقلبه ومشاعره، ولكنه إذا كان قد رأى خيرا فى الديكتاتورية بالنسبة لايطاليا والمانيا ،فانه كان لايرضى عن الديكتاتورية المعتدية التى ترمى الى تدمير فكرة التعاون الدولى .

وقد أوقف أبو شادى الكثير من إنتاجه النثري والشعرى لمعاونة هذه المحاولات التى رمت الى إزالة الأثرة من نفوس الأفراد ، والى رفع هذه الحدود الصناعية بين الأمم ..، كان أبو شادى فى مثاليته يدعو الى فكرة التعاون العالمى بين الأفراد والأمم .

لقد كانت روح الانسانية هى التى جعلته يعجب باخناتون وينظم أوبرا في امتداح حياته ومبادئه ، هذه المبادىء التى رمت الى حب مجموعات البشر لبعضها البعض ، وقد كانت هذه المبادىء فى هذا التاريخ المبكر تعتبر ظاهرة فكرية لها مكانتها فى تقدير الإعجاب بهذا الرجل .

ولهذا فمن حق أبى شادى اليوم أن يدرس أدبه حتى تتضح عبقريته،

* * *

صحيح أن أبا شادى بوفاته قد بات فى ذمة التاريخ ، ولكن انتاجه الأدبى من حق الناطقين بالضاد ، ولهذا فمن واجبهم اليوم أن يضعوه فى ميزان النقد فى أمانة ونزاهة ، فقد انتهى الرجل ... ولكن انتاجه لم يوارى التراب معه ولن يوارى بعد وفاته فقد بات هذا الإنتاج أمانة فى عنق الجيل الذى أبرزه والأجيال التى جاءت وستجىء بعده .

وأبو شادي فى نثره متعدد الصور ، وهو ليس بأقل من أبى شادى الشاعر فى تعدد الألوان التى يغطيها انتاجه ، وأشعر بأنه من واجبى أن أقدم فى هذه العجالة من الحديث عنه بعض الصور التى كان يحلو مطالعة رسومة فيها وهى .

* صورة المؤمن المتصوف

* صورة أستاذ الجيل الذى نسى نفسه وذكر طلبته

* صورة الناقد العف اللسان والقلم .

وقد يبدو لى بأنه فى هذه الصفحات من الحديث عن أستاذ جيل يجب أن نبدأ بصورة (الناقد) الزيه العف اللسان والقلم ، ومع هذا فانى أبدأ جولتى وإياك بالحديث عن المؤمن المتصوف

أبو شادى المؤمن المتصوف

ويحلو لى دائماً مناقشة أراء أبى شادى فى التصوف وكلما تعمقت فى دراستها كلما أزددت ثقة بايمان الرجل ،هذا الايمان الذى كان دائماً مثار ما وجه اليه من حملات عنيفة من بعض الذين دفعوا دفعاً من بعض أعلام الأدب مع الأسف لمهاجمته ، فضلا عما كان ينشره هؤلاء وغيرهم فى غير جرأة غفلا من الامضاء للتشكيك بالرجل وقصيده ونثره

كان أبو شادى متصوفاً واسع الايمان راسخ العقيدة ، ولكن أباشادى كان طبيباً ودراسة الطب من أهم الدراسات التى تؤدى حتما إلى صراع بين الدين والعلم ، صراع ميدانه عقل الطبيب ، والعادة أنه يحاول دائماً أن يوفق بين العلم والدين ، ولكن محاولة التوفيق هذه لا تتم إلا إذا كان الإيمان قويا ، لأن ضعف الإيمان الفطرى يؤدى حتما إلى زعزعة العقيدة أمام فلسفة العلم .. ، وهنا نلقى فى أبى شادى صورة فذة فلقد كان أبو شادى متصوفاً ، وتكشف دراساته لايضاح الصراع بين العلم والدين عن هذا (التصوف) وعن مذهبه فى (الإلهيات) .

على أننى لا أستطيع أن أقول بأن تصوف أبى شادى كان مماثلا فى انتاجه الشعرى إلى ما قدمه فيكتور هوجو فى (الله والشيطان) ولا إلى ما قدمه الشاعر التركى عبد الحق حامد فى كتابه Macber And obu فان تصوف ابى شادى لم يكن محدداً اللهم إلا فى اعتباره العالم كله وحدة كهربائية فنية واحدة ترتبط بها بالطبيعة ، وابو شادي المتصوف يوضح هذا الارتباط فى قصيدته (العطف الآلهى) فيقول .

وأحس أنى فى اندماج دائم
بالكون ، والكون العظيم حياتى
أتأمل الساعات فى أجرامه
وكأننى متأمل مرآتى
وأنال عطفاً من جميل حنانه
يسرى إلى روحى بغير فوات
حس خفى لست أدرك كنهه
وكأنما هو معجز الآيات

كان ابو شادى العالم يقوم بعبادته الصوفية واستغراقه فى معانى الألوهية عن طريق شغفه بعلم الفلك وتردده على المراصد ، هذا التردد الذى كان يبعث فى نفسه التأمل والتفسير لا عن تصنع بل عن استعداد وجدانى ، التأمل فى الكون الفسيح ووواسع علم الله ، وقدرته سبحانه وتعالى ، وهذا التأمل الصوفى هو الذى نعته الغزالى بالنظر إلى وجه الله

يقول أبو شادى فى كتابه (عقيدة الألوهية) .

« إن صفات الله المكشوفة لنا ليست جميع صفاته تعالى بل لعلها لا تتعدى صفات العوامل الكونية الضابطة للوجود باعتبار هذا الوجود كائنا دوريا ،ومظاهر الطبيعة جميعها وحقائقها متمشية مع تلك الصفات أو العوامل . والطريق العلمى الممهد لتعريف الألوهيـــة هو الطريق السيكلوجى لانه حقيقة واقعةفطرية ليست بأى حال نتيجـة الوهم أو الجهل ، وأعنى به إحساس الجزء بالـكل واجتذابه إليه . ولعل هذه الظاهرة ، ظاهرة الإحســـاس بالألوهة ، هى التى أوحت إلى الجنرال أسمطس مذهب فلسفة (الكل) الذى يفسر ما يسـميه العلماء بالتطور الإبداعى أو التطـور الفجـائى فى الوجود مما يتعـــارض مع نظرية الميكانيكية البحتة فى الطبيعـة ، وعنده أن العالم بأسره مدفوع بطبعه إلى الانحراف عن الميكانيكية البحتة . ومتجـه نحو تكوين(الـكل)، وهذا هو المثل الأعلى الذى يسعى العالم بأسره إلى تحقيقه . وبتحقيقه تتحقق منه غايته ، وإذا كان هذا الاتجـــاه نحو تكوين (الكل) أمرا مشاهدا فى جميع أنحاء الكون على اعتبار أن فى طبيعة الاشـياء نزعة متجهة على الدوام نحو تكوين هيئات منتظمة يسمى كل واحدة منها (كلا) فلعله مما يقنع بعض الماديين بهذه الجاذبية الطبيعية التى أشرت إليها والتى أعدها رمز الإحساس بالألوهةولذة الأنس باللهالتى لا تعادلها لذة ، كما يقول حجة الاسلام الغزالى بعد تصوفه » .

* * *

لقد كان ابو شادى ينظر الي محاولات الكثيرين للتوفيق بين العلم والدين على أنها محاولات تبذل فيها أساليب تعسفية تقوم على كبت التفكير والاستقرار والدراسة ، وأن الصحيح هو محاولة هذا على أساس دراسة النفس ومشاعرها واتجاهاتها الأصيلة فيها .

ثم يقول أبو شادى

« وإنى أكرر لحضراتكم أيها السادة أن الشعور بالألوهية فى اعتباري ليس مسألة خوف أو جهل على مايرى بعض المفكرين الغربيين ، بل هو مسألة فطرية سيكولوجية مبعثها إحساس الجزء بالكل ، وهل نحن فى المعنى التصوفى إلا أبناء الله ؟ ولولا هذا الاحساس لما قال الحلاج كلمته المشهورة التى أودت بحياته ، لأن بيئته لم تفهمها فأساءت تأويلها وجنت علية شر جناية »

« أما عقيدة الألوهية الخاطئة فى بعض الأديان فقد تكون ناجمة من خوف أو جهل ، ولكن لاشأن لى بمثل ذلك ، إذ أننى أتكلم عن الإحساس الأصيل لاعن التقليد الموروث ».

« ويطيب لى تكرار الإشارة فى حديثى ومحاضراتى الفلسفية الدينية إلى آية الكرسى المعدودة من جواهر القرآن الشريف ، فان هذه الآية الكريمة فى نظرى مفتاح التصوف الاسلامى وباب الالوهة الحقة ولو أن الاسلام تقليديا معدود بمعزل عن التصوف . ولكن هذه الآية تملؤنى احساساً بوحدة الوجود ، واعتقاداً تاما بأن الاسلام لايفصل بين الله والعالم كما تفعل بعض الأديان وقد كان نبينا عليه الصلاة

والسلام يتقشف ويتصوف معتزلا فى جبل حراء عابدا الله فى ملكوته

فعقيدة الألوهة فى ضوء الإسلام لاتخالف العلم السليم ولا الإحساس النفسانى النقى ، وهى بعيدة كل البعد عن الخوف أو الخرافة أو الجهل لأنها تقوم على ركنين أولهما الإحساس الصوفى الفطرى : إحساس الجزء بالكل وثانيهما وحدة الوجود التى تشع عليها آية الكرسى فتظهرها لنا بكل وضوح . ومن الآيات القرآنية التى ينبع منها التصوف قوله تعالى فأينما تولوا فثم وجه الله (سورة البقرة آية ١١٥) وقوله: «واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى (سورة البقرة آية ١٨٦) وقوله « الله نور السموات والأرض » (سورة النور آية ٣٥)»

وينتهى أبو شادى الى أن النفس البشرية لاتستطيع أن تتخلى عن عقيدة الالوهة ، وإنه إذا تحولت هذه العقيدة تحت تأثير الحيرة أو الضغط الاجتماعى فان هذا التحول يكون موقوتا ، ولا تلبث النفس البشرية أن تعود الى الإيمان والعقيدة الطبيعية فيها .

واطمئنان النفس واستقرارها فى هدوء يبعثه الإيمان وثبات العقيدة

ولايغفل أبو شادى المتصوف عن إيضاح أهمية الإحساس بوجود الله.. على أساس إحساس الجزء بالكل والانجذاب اليه

وهنا تبدو صورة أبى شادى المتصوف وهو يناقش أراء بريجل باتيسون أستاذ الفلسفة لعهد طويل فى جامعة أدنبره وصاحب كتاب (فكرة الله فى ضوء الفلسفة الحديثة) ، يناقش أراء باتيسون فى فلسفة

إثبات الوجود لله على أساس منطق أن وجود الشيء دليل على وجود صانع له ، فأبو شادى يرى أن وجود الله إيمان فطرى لا يحتاج للتدليل عليه الى منطق .

ثم تبدو قوة أبى شادى الصوفية عند الحديث عن صفات الله سبحانه وتعالى ، فهو يرى أن صفات الله المكشوفة لنا ليست كل شيء لأن صفات الله أكبر وأعظم من أن يحصيها لسان أو أن تجيء على عقل إنسان

* * *

والحديث عن « عقيدة الالوهية » فى تصوف أبى شادى يتطلب منى في الواقع بحثا (لمذهبه) أو بمعنى أصح أوضح لآرائه فى الارتباط بين العلم والدين ، وعلى الاخص من ناحية انتفاعه هو بالعلم فى تفهم الدين ومطالعة القرآن الكريم ومراجعة أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام

وأذكر تقاشا دار بينى وبين رابای نيوزيلندى من علماء اليهود كان فى مصر إبان الحرب العالمية الثانية ، وكان النقاش حول عمر الأرض وعمر الحياة التى كانت على سطح الكرة الأرضية فى هذا التقسيم الذى يقسمه العلماء إلى العصور الميوسينى والبليوسينى والبليستوسينى قبل أن يصلوا إلى العصر النيلوسيك والتى تسبق كلها عصر التاريخ المسجل بمليون عام ، مع أن كل العصر التاريخى المسطور لا يزيد عن خمسة آلاف عام .

وكان الرجل يضع تنظيما غريبا جاء به من سفر التكوين فى التوراه ، ويضم تواريخ الأنبياء وما جاء عن أعمارهم وأن آدم عاش الف سنة ، ونوح أو على ما ينطقه هو (بضم النون وتشديد الواو بالفتح

وسكون الحاء) عاش تسعماية وخمسين سنة ، وهكذا ثم يصل بالجملة إلى مايقل عن دورة واحدة من الحياة على مايقول العلماء طبقا للحفريات ولآثار الحياة التى يجمعونها من مناطق الإقامة التى عرفها الناس منذ أقدم العصور ، ثم غابوا عنها عندما تطورت صور الحياة البدائية إلى هذه الصورة الحضرية التى نعيش فيها اليوم

وأحاديث العلماء لا تقبل الجدل أو الشك لأن أدلتها قائمة ملموسة ، وقد طال النقاش وكان رجل الدين الموسوي مع ثقتى بدراسته الجامعية العلمية إلى جانب دراسته الدينية غير موفق لأنه كان صلبا جامداً ، يظن أن هذا الجمود هو دليل إيمانه ، وكان يحاول أن يدعم قضيته بافتراضات لا حقائق ثابتة لها .

وكنت أناقش الرجل على أننا يجب أن ننظر إلى ما أدركنا من معرفة هى نتيجة دروس العلماء وبحوثهم .، على أنها فى الواقع ذات جانبين يكملان بعضهما بعضاً فهناك نظريات لبعضها طوابع افتراضية تثبت بعضها بعضاً ، وهذه النظريات توجد الأصول والقواعد التى توصلنا إلى ما له ماديات وكيان ووجود ، وعلى هذا الاساس نحل الكثير من مسائل الهندسة ومعادلات الجبر مثلا ، ولكن هناك الجانب الأهم وهو الحقائق الثابتة ، ونحن عندما نتحدث عن جاذبية الأرض تبعاً لسقوط الاشياء نحوها مهما ارتفعت دون أن تخرج من نطاق هذه الجاذبية ما لم تكن هناك قوى محركة دافعة تحول دون هذا السقوط ، أو عندما نتحدث عن دوران الأرض حول الشمس ، وأن هذا الدوران الدائم

المستمر ولمدة أربع وعشرين ساعة هى التى قسم اليها اليوم إنما هو الذى يوجد الليل والنهار على التبادل بين نصفى الكرة الارضية الطوليين ، أو عندما نتحدث عن الخسوف والكسوف والمد والجزر وما إلى هذا فاننا نتحدث عن حقائق هـذه الحقائق العلمية الثابتة التى لا تقبل التبدل أو التغيير هى التى نستخدمها فى التوفيق بين العلم والدين .

وهكذا فعل أبو شادى يقول فى كتابه « مذهبى »

« ولذلك جعلت مذهبى فى تفهم القرآن الشريف أن أفسر كل ما لا يتفق فى ظاهره وحقائق العلم الراسخة تفسيراً مجـازيا ، وأن أعتبر النقليات بمثابة رموز ، ولذلك أعتقد أنى وفقت توفيقا أحمد الله عليـه إلى تذوق جمال القرآن الشريف تذوقا تاماً يتلاءم مع ثقافتى العلمية

وغير خاف عن حضراتكم ان النزعة الحديثة بين المتعلمين والجامعيين خاصة هى نزعة لادينية، وقل بينهم من يأخذ الدين على علاته كما يقدمه النقليون المحافظون ، اما خطتى فهى التوفيق التام بين الدين وحقائق العلم الراسـخة من ناحية تفسـير القرآن الحكيم . وأما عن الأحاديث فانى أرفض رفضا باتا كل حديث يناقض العلم الثابت لأنى لا أتصـور صدوره عن صاحب الرسالة العظمى التى خلقت من الانســانية أمة واحدة فى مشاعرها وإن تعددت قومياتها »

* * *

وينفلت أبو شادى المسلم من إيضاح (مذهبه) ، إلى الحديث عن عظمة الإسلام والكشف عن المرونة التى تمكنه من مسايرة تطورات

المجتمع الأكبر ، مجتمع العالم كله ، (ولولا ذلك لما صلح لشتى الامم في شتى العصور ، ولما أنجب أمثال الكندى والفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن باجة وابن طفيل ، وابن رشد وابن خلدون وابن الهيثم ، ومحيى الدين العربى وابن مسكويه ، وجلال الدين الرومى .. وغيرهم كثيرين من الفلاسفة والمفكرين)

ولقد صدق أبو شادى فان مبادىء الاسلام السمحة ، ممتزجة بالروح العلمية كفيلة بأن تعطى للانسانية جمعاء ديانة شاملة حتى لمن لا يعتقدون فى الاسلام اعتقاداً دينياً صرفا .

إن الاسلام بتعاليمه يمكن أن يوجد التآلف وتوحيد الصفوف فى صورة « العالمية » التى يحلم بها الناس اليوم ، وكل ما يحاول الغربيون من عقد مؤتمرات أواجتماعات أومعارض وما اليها لجمع مختلف الشعوب فى صعيد واحد لإزالة عوامل الفرقة .

كل هذه المحاولات ، وكل ما تفتقت عنه أذهانهم وان لم يؤمنوا به كحديث (الحرية والاخاء والمساواه) كل هذا الذى حشد له العقل البشرى فى أكثر من ثلاثة عشر قرنا منذ هجرة الرسول من مكة الى المدينة ، كل هذا جاء به الاسلام منذ اللحظة الأولى ، فقط ، يجب أن يتمشى العلم الى جانب الدين كالساعد الايمن له وأن تخلص نوايا رجال العلم ويصح اسلام العلماء والمتعلمين . .

أستاذ جيل

وكان من الضرورى أن يكون أبو شادى أستاذ جيل خاص من الأدباء الشبان ، فقد كان طابع العصر ككل عصر سبقه أن ينظر البادئون على الدرب إلى أولئك الذين قطعوا مرحلة كبيرة من الطريق على أنه تتوافر لهم التجربة والدراية ، وأنهم يستطيعون التوجيه والارشاد ، فكان لكل من الأعلام الأولين مدرسة ، وكان من الضرورى أن تكون لأبى شادى مدرسته ، مدرسة من الشعراء والكتاب الشبان ممن تربطه بهم صفحات (أبولو) و (الامام) والذين كان أبو شادى يفسح لهم الطريق ويمهد لهم كل السبل ليتقدموا الصفوف وليصلوا إلي المقدمة . . .

لقد كان أبو شادى الأديب لا يعرف الأنانية الفردية التى تلحق عادة بمن يصلون الي القمة، لأنهم يرون أنفسهم وحدهم وانتاجهم وحده ثم لا شيء ، وكأن العالم قد أجدب وكأن الدنيا قد أصابها العقم ، ولكن أبا شادى كان يعتز بكفايات أفراد مدرسة أبولو وغيرهم من الأدباء الشبان اعتزازه بانتاجه ، بل كان يقدم نشر ما يكتبون على نشر ما يكتبه هو ، وكان ينشر مجلة الامام تطبعها مطبعته التعاون ويتولى

تحريرها الأستاذ السحرتى المحامى ، وكان أبو شادى يحتمل العبء المادى كله مقتطعا اياه من قوته وقوت أولاده ، وكان من الممكن أن نتفهم هذا على أساس أن أبا شادى يجد فيها ميدانا لنشر جانب من انتاجه الأدبى الكثير ، ولكن أبا شادى كان يقدم ما يبعث به اليه مراسلوه حتى لقد يصدر العدد الشهرى دون أن يكون له فيه سطر ، وكان لا يتوانى عن تقديم كتاب (أبولو) راضيا بالوقوف فى الصورة الخلفية، فقد كان يشعر بأن نجاحهم نجاحا له ، وكان يرى فى تقدمهم نصراً للأدب الحر وللأدباء المتحررين

لقد آمن بشباب الكتاب والشعراء وحمل علم كفاحهم ضد المحترفين من شيوخ الأدب عازفا عن قوافل الأدباء المداحين الذين عاشوا يسكبون عصير ثمار أفكارهم على هياكل شيوخ الكتاب .

وكانت عينا أبى شادى النقادتين فى التقاط آثار المركبات أو الجراثيم فى معمله الطبى لا تتركانه عندما يقف أمام آلة الطباعة وصناديق صف الحروف ، ولا تهجرانه عندما يناقش قصائد الشعراء ومقالات الكتاب التى تصله مع البريد ، ولا تلك التى يلقاها من ثمار أقلام أولئك الذين تضيق بهم الغرف الباهتة الضوء فى الطابق الأرضى للمنزل القديم المتداعى الذى يحتل ركن شارع (عمر شاه) بحى السيدة زينب .

كانت عينا أبى شادى توضحان له الفرائد والقلائد التى تجىء مبعثرة وسط شتى المواد ومن شتى الموارد . .

وأبو شادى كالجوهرى الأمين ينظم الأحجار الكريمة وينصح

عميله بما يأخذ وما يترك ، وما يرعى وما يصحح أو يستبدل ، فكان أبو شادى يوجه فى غير عنف . . ويرشد فى غير قسوة . . ، وكان فى تشجيعه يستخدم أسلوبا له طابع التوجيه المرغم

وأذكر أنه فى حديثه عن كتابى (المتنبى) الذى نشر بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة المتنبى قال (وقد أغتبطت بقراءة كتابه هذا لما فيه من سهولة جذابة ماأشك فى أن لها وقعها الجميل فى نفوس الطلبة والمتأدبين عامة ، وهذه الصفة البارزة لديباجته ولتناوله الدراسى لمحتها من قبل فى كتابه (شعراؤنا الضباط) الذى نال من التفات القراء ما يغبط عليه بالنسبة لأمثاله من التآليف الأدبية فى مصر ، ولاحظت بسرور اعتماد المؤلف على مراجع شتى فى كتاباته حتى ليعد كتابه زبدة سهلة الهضم لمطالعات كثيرة وخلاصة مدرسية ممتعة . . . الخ) ، قال هذا ونشره فى المجلد الأول من (أدبى) ابريل — يونيو ١٩٣٦) الاعداد ٤ — ٦) ص ١٦٠ : ولكنه كان من الضرورى أن يكون أمينا فى توجيه شاب من جماعة أبولو فقال قبل سطور (ليس المتنبى بالمجهول فى البيئات المدرسية ولكنه غير مستوعب وسبب ذلك قلة التيسير فى عرض سيرته وشخصيته وأدبه على الطلبة ، فاخراج كتاب يسد هذه الثغرة عمل مجيد بلا شك ، ولا أعرف أكفأ من ثلاثة أدباء للقيام بهذه المهمة وأعنى بهم — مع احترام الألقاب — طه حسين واحمد الشايب وعبد الفتاح ابراهيم فأما عن طه والشايب فتقديرى إياهما معروف لحلاوة بيانها الكلامى ، وأما عن عبد الفتاح ابراهيم فأحب أن

أقول إن لهذا الضابط الأديب الشاب مستقبلا مشرقا كمؤلف محدث بشرط أن يعنى بتنسيق كتابته وضبط قلمه ومحاسبة نفسه حساباً عسيراً على صحة عباراته ، وهو فاعل ذلك إن شاء الله)

ولقد آثرت أن اقدم هنا حديث الصديق الوفى عن كتاب لي من مؤلفات فجر حياتى الأدبية لكي أنصف الرجل الذى له فى عنقى دين واجب الاداء ، بل لأدلل على كياسة هذا الرجل الذى كانوا يهاجمونه بعنف وقسوة . بل وعلى حين غرة لأنه منافس قوى له قيمته الأدبية ، وقد كانت الحياة الأدبية فى مصر فى ذلك الوقت تعبث بها أنانية بعض الأعلام من شيوخ الأدب ، وكان أبو شادى أبعد الناس عن الوقيعة والدس ، وحتى عندما بدا أن بعض من يلتفون حوله كانوا حرباعليه، بقى ينظر اليهم وإلى من يوجهونهم نظرة سمحة طيبة لأنه انسان ولأن إنسانيته لاتعرف الخصومة فى غير ميدان الأدب فكيف تعرفه فى الأدب ترجمان العاطفة ووحى مشاعر النفس وأحاسيسها ! ! !

كان أبو شادى لاينظر إلى الجيل الذى احتمل مسئولية توجيهه على أن هذه المسئولية قاصرة على التوجيه الأدبى ، بل كان يرى أهمية التوجيه الأخلاقى ... ولهذا كان دائما المثل الحسن فى كل شىء ، بل ولهذا ايضا كان أبو شادى عف اللسان والقلم ، وبالرغم من الثورة التى قد تحسها تغلي فى قلبه كالمرجل وهو يقاتل مدافعا عن حرية الفكر ، ناقداً رأيا أو حديثا فى الرجعية الأدبية ، فانك تلقى أسلوبه منطقيا هادئا ، وكلماته لاقسوة فيها ولا عنف حتى لتخاله يحاسب نفسه على

مايكتبه وانه يراجع مايخطه فى هذا النقد المرة بعـــد الأخري قبل أن يقدمه لعامل صف الحروف .

وهو حقا رحمه‌الله كان كذلك ، كان يراجع ما يكتب ، ومع كثرة انتاجه كان يعنى بمراجعته وبترقيمه لتسهل قراءته وحتى لايضطرب تفهم أهدافه وأغراضه هذا من جهة . . . ولكن من جهة أخرى ، بل لعلها هى الأهم فى تقديره ،وهو أنه كان يعمل دائما على مراجعة الفاظه لتخلو من كل ما يعتبر عنيفا قاسيا .

لقد كنا أبو شادى كما قلت استاذ جيل وكان يرى بأنه من واجبه دائما أن يكون مثالا حسنا . . . وكان هذا الخلق الكريم عن طبيعته لا عن تصنع

كان أبو شادى انسانا ، وكانت انسانيته هي التى لم تجنبه الصواب عندما بدأ فى صورة الناقد المتحرر .

وهذه حالة لم تعهـدها فى مصر ، ولا منـذ ربع قرن مضى ، وقد قرأنا الفصول الممتعة للامامين الجليلين المغفور لهما محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضـــا فى الرد على الدهريين ، ولم تسمع أن أحدهما طالب مرة بمصادرة كتاب أو بحث حر التفكير .

أبو شادي في مقال (من أدب الدين)
الامام سبتمبر ١٩٣٦

الناقد المتحرر

وصورة الناقد المتحرر العف اللسان واليد هى أبرز الصور فى حياة الكاتب ، وهي صورة لا بد وأن تسترعى انتباه من يتجول فى ثمار قلمه ، على أن علة اهتمامى بها وبتقديمها ، ليست من ناحية « النقد » فى وجهة عامة وحسب ، بل من ناحية صلة هذا باستاذية أبى شادى لهذا الجيل الذى كونته مدرسة ابولو من الكتاب والشعراء الشبان الذين جمعت عقدهم صفحات (ابولو) و (الامام) لسنوات طوال .

وأبو شادى كناقد فى الحقيقة كان حر الرأى واسع الصدر ، عف اللسان والقلم لم يشتد فى نقاش ، ولم ينظر إلى انتاج غيره من الأدباء سواء أكانوا من الأعلام أو من المكافحين المبتدئين على الدرب إلا على أساس أنه ثمار أفكار قد أجهد أصحابها أنفسهم فيها ، وأنها من أجل هذا يجب أن تقدر .

لقد كان أبو شادى من نسيج وحده ولهذا برغم فوضى النقد الأدبى فى مصر فى مطلع الثلث الثانى من القرن العشرين كان نقد أبى شادى واضح الأثر فى السمو بالانتاج الادبى .

والواقع أن أبا شادى كان حريصاً على كرامة المؤلفين من غطرسة

النقاد السطحيين ، كحرصه الدائم على كرامة النقاد الناضجين من غرور المؤلفين حتى أنه لم يتوان مرة عن العمل على صيانة الاحترام المتبادل بين المؤلفين والنقاد المثقفين على السواء.

وإذا كانت هذه الخطة المستقلة قد جلبت على أبي شادى فى الوقت ذاته عداوات لم يتورع بعض أصحابها عن الاختلاق والدس بصورة مضحكة لولا أنها محزنة ، فان كل ما كان يضيق به أبو شادى هو النقد المزيف الذى يقوم به نفر من الذين يقعد بهم العجز عن اللحاق بالقادرين فيقفون حيث هم يلمزون هذا ويتنادرون على ذلك ، ولابى شادى رأى فى هذا ، رأى ساهم به فى النقاش الذى دار فى مجلة (الرسالة) بين الادباء الافاضل احمد حسن الزيات واحمد أمين وطه حسين فى عام ١٩٣٦ حول معركة النقد الادبى، يقول أبو شادى

« ولست أرى علاجاً حاسماً للنقد المزيف إلا بتشجيع النقاد النزيهين الناضجين ، وبنشر التربية النقدية الصحيحة بحيث يفهم الناقد أن رحابة الصدر واجبة عليه كما أنها واجبة على كل أديب منقود وليست مطلوبة من الاخير وحده ، ويتبادل الاحترام بين المؤلفين والنقاد ، ويتضامن الادباء فى محيط مدارسهم الفكرية تضامناً قوياً تسنده متانة الاخلاق ويترفع أصحاب المجلات والصحف عن الاستجابة إلى ملق الناقدين العاجزين وإلى صيحات الجماهير ، وبالتسامى فى النقد عن الأهواء والأحقاد فلا يسمح بالدسيسة ولا بالكلمة الوضيعة للمزورين ، ولا يسمح بالمغالطات والتغالى الممقوت للهوائيين المغرضين. »

وهذا الحديث عن الأصول التى رسمها أبو شادى للنقد الأدبى تتطلب منى أن أقف بك بأزاء بعض أحاديثه فى النقد

ولنمسك مثلا (بديوان الاسكندرية) الديوان الذى أخرجه وكتب مقدمته الشاعر على محمد البحراوى ، وقدم فيه مختارات لثلاثة عشر شاعراً من شعراء الاسكندرية ، وهى مختارات قال عنها أبو شادى « ولئن ألقى (يقصد البحراوى) مسئولية الاختيار على الشعراء أنفسهم إلا فى حالة الشاعر شكرى مكتفياً بحظ التنويه بآثارهم ، فلا نزاع فى أنه لا يمكنه التحرر التام عن مسئولية الاختيار وهى مسئولية صالحة ، فقد جمع هذا الديوان الكثير من الشعر الجيد الذى يغتفر إلى جانبه ما فيه من نظم مألوف واسفاف » .

وأنا فى الحقيقة عندما عرضت لأبى شادى الناقد انما استهدفت الآراء الاصيلة العامة التى تجىء فى سياق نقده وأنصت له وهو يتحدث عن أهمية الشخصية الفنية ، وعن خطورة مرض المحاكاة والتقليد

يقول أبو شادى في سياق نقده للديوان ولقد رأيت أننى لم ابرىء هذا الديوان من إسفاف ومن تفاهة فى مواضع ، ولكنه إلى جانب ذلك يجمع الكثير من الحسنات ما بين موروثة ومبتكرة ، والاخيرة هى التى تعنينى فالفن قبل الانسان لا يجوز أن يعيش على تراث الموتى وحدهم بل يجب أن يجد له ذخيرة عظيمة من ذاتيته ويجب أن يكون خلاقاً »

(ان ملكات العاطفة والخيال والفكر والموسيقى والذوق الفنى الشامل متفاوتة بطبيعة الحال عند الشعراء المساهمين فى هذا الديوان ، وقد أشرت الى ذلك اشارات رقيقة فى مواضعها ، ونحن لانتنظر غير ذلك حتى ولو انتسبوا إلى مدرسة واحدة ، وانما الذى يعنينا وجود الشخصية الفنية عند كل منهم ، وامتياز طاقتهم الشعرية ولو فى هذه المختارات ، لأننا نحاسب هذا الديوان بالذات لامجاميع أشعارهم، وأعتقد أن نصيبهم من ذلك يستحق المديح اجمالا ، ولولا هذا الاعتقاد لما خصصت الديوان بشىء من الانتقاد ، فان فى ضياع الشخصية الفنية حكما بالفناء على العمل الادبى ولاجدوى حينئذ من الالتفات اليه)

(وقد اعتاد المحافظون أن يتغنوا برواشم الأساليب المألوفة ، معتبرين أجود البيان ماكان على غرار تلك الرواشم ، معنفين كل أديب مستقل الروح والديباجة ، كيفما بلغت ثقافته من الادب العربى وغيره !! وهذه وايم الله هى الغفلة بعينها ، إذ ماهى جدوى الادب من الدعاية للتقليد الصرف فى التعبير ، ثم للتقليد فى غير التعبير ، بحكم مرض المحاكاة المحبوب ؟ !! وهل ماضى اللغة أكثر من ذخيرة الاساليب المختلفة ؟ فلماذا تحل تلك الاساليب القديمة وتفرض فرضا حتى على النابهين من الادباء ، ولايتاح للنابغين المحدثين أن يستقلوا بأساليبهم المفصحة وفق طبائعهم الفنية الاصلية ؟!؟ إنهم يضيفون الى تراث اللغة ثروة بيانية جديدة وللزمن وحده الحكم على قيمتها وعلى أهليتها للخلود ، وليس لأهل الهوى والتعصب الأعمى أن يصدروا تلك الأحكام المريضة)

وأنصت الى أبى شادى وهو يتحدث عن (الحالة الشعرية)، الحال التى ينظم فيها الشاعر، ويرى فيها كل شيء بعين الشعر، وهنا الفيصل بين الناقد والشاعر سيما فى تباين النظرة بالنسبة للصناعة فى الشعر.

يقول أبو شادى (ومن النقاد من يرى التفاهة فى موضوعات يراها الشاعر من ألصق الموضوعات بالحياة وبالشاعرية، فهو يفرض شعره فيما نسميه «والحالة الشعرية» التى ترى كل شيء بعين الشعر، فاذا جاء ناقده أو قارئه مستعرضاً ذلك فى حالة عكسية، فلا عجب إذا لم يرفيه إلا التفاهة والركاكة والحشو والضعف كأنما صاحب ذلك الشعر أحد الدهماء وقد تجرد من كل ذوق فنى !! ، ومن النقاد من يفتن أى افتنان بالصناعة اللفظية الرنانة، ويجاريهم كثيرون من القراء فى ذلك وأصحاب الصناعة يعرفون ذلك حق المعرفة فيغيرون على أشعار سواهم دون أن يكون لهم شيء يذكر مما سميناه «الطاقة الشعرية» وقد يثابون على هذه السرقات الجريئة بالتهليل والتكبير حينما يذم الشعراء الأصيلون)

* * *

وكانت قوة أبى شادى الناقد تكمن فى أعطاف المقارنة... المقارنة بأدب الغرب فى أروع نماذجه، ثم المقارنة بانتاج فحول شعراء العربية فى ذات الضرب من القصيد الذى يعرض له

وخذ مثلا حديثه عن (التصوير فى شعر البارودى)، وفى هذا الحديث يقول أبو شادى «إن دراسة شعر التصوير فيما اعلم تكاد تكون غير مطروقة، وإذا أشير اليها فانما توجه الاشاره إلى ذلك

الطراز من الشعر الذى يلتفت إلى الطبيعة بصفة خاصة وإن انبثت فيها الشخوص كقصيدة « الفصول » للشاعر طمسن ، وعندى أن شعر التصوير وان اتسم بهذه السمة من التعلق بالطبيعة ، أو على الاصح من التعلق بروح الطبيعة فان « معنويته » تتعدى ذلك الى التأمل الفلسفى العام كلباب للتصوير وفى الوقت ذاته يشمل النقد الدقيق المرئيات ، بخلاف الشعر الوصفى فان تعلقه مقرون بالمحسوسات، وعلى هذا الأساس نفرق بين هذين الضربين من الشعر تفريقاً عرفيا »

« وشاعرنا البارودى الذى جددت عبقريته الشعر الكلاسيكى تجديداً مدهشا لم يفته أن يتحف هذا الشعر بنماذج تصويرية جميلة، وأشهر شعر البارودى التصويرى فهو قصيدته فى حرب جزيرة « أقريطش » وقد نظمها فى أواخر العقد الثالث من عمره ، وعندى أنها من الشعر الخالد باصالتها وبملامحها الفنية الجذابة من جميع الجوانب ، وأما شعره الوصفى فنبث فى خلال شعره المتنوع ، ومن أمثلة ذلك أبياته فى وصف الحمائم من رائيته المشهورة ووصفه قصر الجزيرة، وقصيدته فى وصف طائر على غصن »

ونحن إذا تأملناها شاقتنا منها جوانب شتى : فهى أولا تحفة من ريشة رسام مفتن ، وهى بعد معرض لحالات الشاعر النفسية ، ونحن اذ نراه يدقق فى تصوير المشاهد التى خبرها فى ساحة القتال نشعر فى الوقت ذاته أن ذلك التصوير ليس هو المقصود بالذات وانما يرتكز عليه حنين الشاعر الى وطنه وتصوير خبايا نفسه إزاء الحوادث ونكايات خصومه، وبذلك جمعت القصيدة بين التصويرين الحسى والنفسى ، وكانت جديرة

بأن نعد مثلا رائعا لشعر التصوير ، أما عن الالفاظ المنتقاة والجرس الموسيقى فهذه القصيدة المثالية آية البر بهما »

على أن أبا شادى فيما كتبه من نقد لفحول الشعراء الأولين كان يعمل دائماً على ادراك الملابسات التاريخية والاجتماعية والأحوال الذهنية المتصلة بقصيد الشاعر وذلك لإمكان الوقوف على مرامى شعره، واذكر له من هذا حديثه عن المتنبي والمصريين فى نقده لقصيد المتنبى وهو يتساءل هل حقد المتنبي على المصريين ؟ وهل كانت له لذة مريضة فى شتمهم ، ويخرج من سؤال إلى أن المتنبى لم يكن يحقد على المصريين بل كان يحبهم وكانت له صلات مودة وثيقة مع خيارهم ، وهم الذين أعانوه على الهروب من أحابيل كافور ، وعلى أدبه تتلمذ كثيرون من شعراء مصر الشبان الذين أجلوه أيما إجلال .

ولايتفق أبو شادى مع حافظ ابراهيم فى أن قصيد المتنبى كان تقريعاً للامة ، بل أن المتنبى ليتوجه إلى الشعب المصرى وخاصة فى قوله « ألا فتى يورد الهندى هامته ... الخ » ولو كان يائساً من فحولة هذا الشعب وشهامته لما كان من معنى لمثل هذا النداء والتوجه إلى فتى من فتيان مصر ليقتل كافوراً ، وينفلت من هذا ليقول (هذا هو روح قصيدة المتنبى ومعناها ، ولايمكن تفهم شعر المتنبى ولا غير المتنبى على وجهه الأكمل دون الوقوف التام على جميع ملابساته ، وإلا وقع الاشتباه والتوت مقاصده وتجمعت أخطاء الشرح بصورة شاذة) .

كثيرة هى النماذج التى يمكن أن تقطع من أحاديث أبى شادى فى النقد والتى تدل على اصالته ، وإلى تعمقه فى الدراسة وإلى أمانته فى التوجيه ، ثم إلى تجرده من الأنانية مما لاتكفى فى تقديمه صفحات رسالة كهذه ، ولكن لعل أصدقاء الشاعر وهم عدد ليس بالقليل من أدباء هذا الجيل يتوافرون على نشر مجموعة (أدبى) فى الصورة التى تتفق ومكانتها ، وإلى القدر الذى يمكن من تداولها وهو أمر لم يستطعه الشاعر الثائر الذى حورب لا لشىء إلا لأنه كان يقتطع من قوته وقوت أولاده ليخرج لقراء العربية هذه الحصيلة الطيبة من الخواطر والسوانح »

ولكن .. من ريشة رسام مفتن ، وهى بعد معرض لحالات الشاعر النفسية ، ونحن إذ نراه يدقق فى تصوير المشاهد التى خبرها فى ساحة القتال نشعر فى الوقت ذاته أن ذلك التصوير ليس هو المقصود بالذات وإنما يرتكز عليه حنين الشاعر إلى وطنه وتصوير خبايا نفسه إزاء الحوادث ونكايات خصومه وبذلك جمعت القصيدة بين التصويرين الحسى والنفسى وكانت جديرة بأن تعد مثلا رائعا لشعر التصوير ، أما عن الألفاظ المنتقاه والجرس الموسيقى فهذه القصيدة المثالية آية البر بهما »

* * *

على أن ابا شادى فيما كتبه من نقد لفحول الشعراء الأولين كان يعمل دائماً على إدراك الملابسات التاريخية والاجتماعية والأحوال الذهنية المتصلة بقصيد الشاعر وذلك لامكان الوقوف على مرامى شعره ، وأذكر له من هذا حديثه عن المتنبى والمصريين فى نقده لقصيد المتنبى ، وهو يتساءل هل حقد المتنبى على المصريين ؟ وهل كانت له لذة مريضة

فى شتمهم، ويخرج من سئوالى إلى أن المتنبي لم يكن يحقد على المصريين بل كان يحبهم ، وكانت له صلات مودة وثيقة مع خيارهم ، وهم الذين أعانوه على الهروب من أحابيل كافور ، وعلى أدبه تتلمذ كثيرون من شعراء مصر الشبان الذين أجلوه أيما إجلال .

ولا يتفق ابو شادى مع حافظ ابراهيم فى أن قصيد المتنبي كان تقريعا للأمة ، بل أن المتنبي ليتوجه إلى الشعب المصرى وخاصة فى قوله « ألا فتى يورد الهندى هامته . . . الخ »ولو كان يائسا من فحولة هذا الشعب وشهامته لما كان معنى لمثل هذا النداء والتوجه إلى فتى من فتيان مصر ليقتل كافوراً ، وينفلت من هذا ليقول (هذا هو روح قصيدة المتنبي ومعناها ، ولا يمكن تفهم شعر المتنبي ولا غير المتنبي على وجهه الأكمل دون الوقوف التام على جميع ملابساته وإلا وقع الاشتباه والتوت مقاصده ونجمت أخطاء الشرح بصورة شاذة)

* * *

كثيرة هي النماذج التى يمكن أن تقتطع من أحاديث أبى شادى فى النقد والتى تدل على أصالته ، وإلى تعمقه فى الدراسة والى أمانته فى التوجيه ، ثم إلى تجرده من الانانية مما لاتكفى فى تقديمه صفحات رسالة كهذه ولكن لعل أصدقاء الشاعر وهم عدد ليس بالقليل من أدباء هذا الجيل يتوافرون على نشر مجموعة (أدبى) فى الصورة التى تتفق ومكانتها والى القدر الذى يمكن من تداولها وهو أمر لم يستطعه الشاعر الناثر الذى حورب لا لشىء إلا لأنه كان يقتطع من قوته وقوت أولاده

ليخرج لقراء العربية هذه الحصيلة الطيبة من الخواطر والسوانح»
وفيها الكثير من الدراسات القيمة عن أدب وأدباء هذا الجيل وعن آراء الناقد المتحرر فى إنتاج مجموعة طيبة من أدباء الشباب ، آراء ساقها فى صراحة مستهدفا البناء لا الهدم .

ولكن هناك ناحية فى ابى شادى الناقد لايجوز أن تغفلها سيما وأنها هى ثمار فجر حياته الأدبية .. الثمار الأولى التى كشفت عن عمق دراسته وأصالة تفكيره من البداية بل إن هذه الحصيلة فى الواقع تقدم لنا آراء الفنان الأديب فى مجموعة طيبة من أدباء الغرب إلى جانب مجموعة اخرى من أعلام الشعراء والكتاب العرب ، وقد جاءت هذه الدراسات مبعثرة فى الصحف لأمد يصل الى خمسة عشر عاما بين عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٥ ولم يكن من الممكن ان تكون فى مجموعها فى متناول اليد لولا وفاء الأديبين محمد صبحى ومحمد العروسى فجمعا ونسقا مختارات منها نشراها عام ١٩٣٧ فى مجلد ضخم رسم بعنوان « أصداء الحياة » وقد نشراها مرتبة على حساب الزمن لا الموضوعات ، وتكشف هذه المجموعات عن تنوع دراسات الشاعر وبالتبعية تنوع الموضوعات التى يعرض لها بالدرس ففى مجموعة عام ١٩١٢ تلقى بين المختارات دراسة لما يتوار تولد وأخري لأدب القرآن وأخرى للكاتب الشاعر المتدين جون بنيان صاحب كتاب « سير الحاج »

وفى مجموعة عام ١٩١٣ تلقى دراسة للمصرى وأخرى للشاعر الانجليزى أوليفر جولد سمث ، وفى مجموعة عام ١٩١٧ تلقى دراسة لجمهورية أفلاطون ودراسة للعالم الألمانى أرتست هيكل وثالثة فى ألمعية

أبي نواس وفلسفة المزاء والغفران . . . وهكذا

فهذه المجموعة من نثر أبي شادى فى خمسة عشر عاما تقدم لنا موسوعة علمية مختلفة الألوان لدراسات مختلفة الصور

والذى يوجهنى الى تقدير هذه المجموعة على التخصيص هى ماتجده فيها من دراسات لعدد غير قليل من فلاسفة وشعراء وكتاب الغرب من أوطان متعددة فيهم الانجليزى والالمانى والبولندي وغيرهم وغيرهم مما يدل على الميدان الفسيح الذى كان يدرس فيه وينقب باحثا عن المعرفة

ولننصت مثلا الى حديثه عن تشارلز ديكنز ،وهى دراسة من مختارات عام ١١٩ أى منذ أكثر من ثلث قرن .. ولكن أول مانقابله فى دراسته هو توضيحه تأثر الكاتب والشاعر بطبيعة الحياة فى عصره

يقول ابو شادى (ص ١٧٢/١٩٣ من مجموعة نثره)

(كان ديكنز مهموما بالأمراض الاجتماعية والاقتصادية فى عصره فصورها أصدق تصوير وأفاض من ينبوع قلبه على قرطاسه فى رسم شخوصه الكثيرين الذين مها انتقدت غرابة بعضهم أو شذوذهم أو اختراعهم فانهم مع ذلك ينبضرن جميعا بالحياة الى درجة مدهشة »

(كان ديكنز خصب الانتاج الى درجة بالغة ، ومع ذلك فجميع قصصه تقريبا تتسم بالأصالة وهي ذخيرة أدب ومعارف عامة وتجارب حيوية وقد حفظت لها هذه الاصالة خلودها الى الآن والى مابعد الآن وبالرغم من تطور الذوق الأدبى تطورا سريعا مبتعدا عن مألوف الاطالة والتكرار والتحليل المتناهى مما كان شائعا فى عهد ديكنز . وهذه هى العبرة الفنية التى يلحظها المتأدبون النابهون فى كل أمة والتى يجب علينا كذلك أن نلحظها ونحفل بها ونبثها فى نفوس المؤلفين من أبناء العربية

الذين مايزال معظمهم يعنى بالنقل والمحاكاة والاقتباس والاقتطاف وما الى ذلك من آثار القدامى دون أن يقدروا للابتداع قيمته وأثره. وكثيرون من قرائى لابد أن يكونوا قد اطلعوا على (قصة المدينتين) التاريخية ، فهل لو كتب غير ديكنز هذه القصة أكان يلونها مثل هذا التلوين العاطفى الانسانى ؟ ان أدب ديكنز فى معظمه (أى بعد تجاوز آثار الصبا) أدب شخصى أصيل فى نبعه الفنى وإن يكن أدباً عاما فى تطبيقه على الحياة الانجليزية — وبالأخص حياة لندن — وادبا إنسانيا فى شموله . فكيف لايخلد مثل هذا الأدب وكيف لايكون درسا بليغا لكتابنا المنشئين ! »

وتلقى فى كثير من دراسات أبى شادى لأدباء الغرب هذا التوجيه الذى جاء فى الكلمات الأخيرة من حديثه عن دبكنز ، ألا وهو ضرورة انتفاع أدبائنا المنشئين بالدروس التى يخرجون فيها من دراسة إنتاج أعلام الأدب الغربى ...

***

وابو شادى الناقد لاينظر إلى قصيد الشاعر أو ادب الكاتب نظرة خالصة لأقيسة الشعر او الألفاظ والمعانى ، ولا ان يقدر للموضوع تقديراً إنشائيا ، فان أبا شادى الناقد إنما يتجه إلى اعمق من هذا.. إلى إيضاح النزعات الغلابة على أدب الكاتب ، ثم التيارات المتباينة التى كانت تمتزج داخل رأس الشاعر فتكون فى النهاية مزيجا واحدا يجمع عناصر شاعريته ...

وهذا النوع من الدراسة التحليلية تلقى منه أنموذجا طيبا فى حديثه عن الشاعر الانجليزى القصصى جورج مروث «راجع دائرة المعارف هارمسوورث»

«وإلى جانب مافى هذا الشعر من البراعة النظمية تلاحظ نزعته السيكولوجية في التحليل، وما فى هذا الشعر من تركيز المعانى، ومن الشغف بدراسة الانسان، وهى الدراسة العليا فى نظره، وكما أنه يقدر للنغم الموحى أثره فى النظم فهو بمزاجه الثقافى يعنى كذلك بالكلمات الرمزية التى تسكن اليها نفسه الرومانتيكية. هو شاعر ميتافيزيقى إلى حد غير قليل كشعراء القرن السابع عشر، ولكنه كذلك مفكر اجتماعى مؤمن بالعلم والمعرفة وحقائق الحياة الواقعية، ومن هذا التناقض يخلق مزيجاً عجيبا لعناصر شاعريته التى بدأت تشتعل وهو فى الحادية والعشرين فكان يوافى المجلات بشعره كما كان يرتزق من الاشتغال بالصحافة، ولا أدل على مكانته الذهنية من تعلقه وهو فى هذه السن المبكرة ببيئته الراديكاليين (المتطرفين) العقليين فى لندن ومن أشهرهم فردريك هاريسون والاميرال ماكس وجون مورلى، وقد عاش مدة قنوعا بهذه الأقلية من المفكرين الراجحين حتى فى الوقت الذى كان يخرج فيه أهم قصصه. ولكن هذه الصداقة الفكرية أتاحت له فرصا للتعاون الادبى مع أفضل الناشرين ومع مجلة (الفورتنيتلى رفيو) وربطته بخير العلاقات مع الأدباء الذين كانوا يلجأون الى مؤازرته وفى مقدمتهم توماس هاتمدي وجورج جسنج»

« بيد أنه من الحق المؤلم أن مردث لم يقدر التقدير الواجب عند الخاصة إلا حين بلوغه السبعين حينما انتخب رئيسا لنادى المؤلفين ، وعند الجمهور لم يقدر أدبه إلا بعد وفاته ، وهى العادة التى تجرى فى كثير من الأمم المحافظة وفى مقدمتها انجلترا فى معظم الاحوال ، ولو أن الحرب قد بدلت الكثير من هذه الروح . وهو فى قصصه المحبوبة يرمى أساسيا إلى دراسة الشخصيات وله براعة خاصة في تصوير الشخصيات النسائية بما لايقل عن براعة شكسبير نفسه . وقد كان مردث يؤثر من هذه القصص روايته (سيرة بيوكاب) التى ترمز شخصية البطل فيها إلى صديقه الاميرال ماكس ، وهى قصة غنية بحوادثها وموضوعاتها كما هى غنية بديباجاتها وجمالها التحليلي للعواطف والشخصيات ومن اهم قصصه بلاشك رواية (الاناني) وهي تحوم حول فكرة ان الرجل المجرد من روح المرح فى حكم الميت ، واسلوبه فى هذه الرواية معقد بالنسبة لذوق الجمهور الذى يريد الأسلوب الروائى المألوف لمحض التسلية ولكنه أسلوب يرتضيه القارىء المثقف الذى يعنيه موضوعها النفسانى التحليلى البديع وقوتها الدرامية الانسانية »

***

والغريب أن يتحدث ابو شادى فى عام ١٩٢٠ وهو لازال دون الثلاثين مندهشا من أن جورج مروث لم يقدر عند الخاصة حتى بلغ السبعين ، فان أبا شادى نفسه على تباين الجيلين ، الجيل الذى عاش فيه (جورج مردث) والجيل الذى عاش فيه (أبوشادى) نفسه ، قد لاقى

ذات الاغفال ، ولم يقدر عند خاصة المتأدبين المتآلهين شيوخ الأدب حتى مات وهو يمد يده نحو منتصف الحلقة السابعه من عمره .

وتجد ذات النظرة من الناقد المتحرر .. ، النظرة التى تعنى بالنزعات والتيارات التى تخلق العبقرية : تجد هذه النظرة فى حديثه عن برناردشو وأنصت له وهو يقول عنه فى مختارات عام ١٩٢١ .

« ذلك هو مظهر عبقرية برنارد شو الدرامى الناقد الساخر الذى لم تسلم ناحيـة من نواحى المجتمع من هجماته . ولقد اختار الاسـلوب الساخر الهزل مجالا لأفكاره وضمنه فى شجاعة متناهية نقداته فى اصالة ظاهرة . وهو يعد فى ذلك قرين صموئيل بتلر ، كما يعد فى كثير من نظراته تلميذ ابسن وكارل ماركس ونيتشه . نقرؤه فنستمتع بروحه الخفيفة وطلاوة نكاته ، ولكننا نشعر في الوقت ذاته اننا أمام استاذ متفضل له فى كل وقت منزلته وشخصيته . وأعظم ميدان برزت فيه مواهبه هو ميدان النقد الاجتماعى إذ تجده لا يتهيب معالجة أدق المشكلات بطريقته العقلية . ولئن لم يكن تلميذا مخلصا لماركس ومريديه فان هذا لا ينتقص اخلاصـه لتفكيره الشخصى وتعزى روحه الانسانية منذ شبابه إلى إعجابه بالشاعر شيلى ، ومنـه ومن ماركس قبس جراءة التعبير والنقد فى شتى المسائل الاجتماعيـة التى عالجها . مثال ذلك فى كتابه (الماجور باربارا) يصور شو الفقر أساس الرذائل فى المجتمع القائم على المـال ، وفى كتابه (منازل الارامل) يظهر لنا (الرجل) الرجل النزيه مسئولا عن نقيصة اجتماعية وقس على ذلك بقية مؤلفاته

التى لن تترك الدين ولا العلم ولا الاسرة ولا المجتمع عامة بدون تشريح فاحص مظهر لعيوبها الخفية وعناصر ضعفها الكامن ، وله أسلوب معين فى دراماته قوامه النقاش بين الخواطر الممثلة والشخصيات المختارة ، وهو فى الدراما الفكرية يجارى ابسن وان لم يبلغ منزلته فى التعمق ، وكلاهما لا يعتمد على شخصيات حية حقيقية وانما على مخترعات من بنات تخيله للتعبير عن آرائه ، وعلى هذا لم يكن الخلق الدرامى الحى قويا عند شو ، لأن حيويته النسبية مستمدة من الذكاء ، وليس مصدرها الواقع ذاته فى عالم الدنيا . ولكن أليست بغية شو تحويل التيارات الفكرية والعاطفية عن طريق إيحائه المثالى لا الوصف الواقعى؟ وإذن فليس له أن يجارى الطبيعة »

* * *

وفى هذه الفقرة الطويلة ، وابو شادى كان من ابرز مظاهره فى نتاج فجر حياته الادبية الفقرات المتكتلة . . . التى يضطرو معها القارىء إلى أن يسير طويلا مع الكاتب دون توقف يمكنه من التفكير ، ولهذا فمن الضرورى لاستيعاب مايستهدفه الكاتب أن تطالع سطوره أكثر من مرة .

والشىء الذى أثق بأن القارىء قد لاحظه فى دراسات ابى شادى طابع الأدب المقارن ، فهو يقدم إلى جانب الشاعر أو الكاتب الذى يؤرخ له غيره من شعراء وكتاب عصره أو غير عصره الذين يتفقون معه أو يختلفون فى الاسلوب أو الامثله أو الاهداف متى وجد

الطابع الذى يمكن من المقارنة ويصلح لها ، ويكون فى هذه المقارنة رس يستهدفه الناقد لابرازه ، سيما عند الحديث عن مؤثرات الجيل أو البيئة الاجتماعية التى عاش فيها الكاتب .

وتلقى الحديث عن طابع العصر فى حديث ابى شادى عن مونتسكيو صاحب كتاب (روح القوانين) ، وفى هذا يقول أبو شادى من مختارات عام ١٩٢٤ .

« من ذا يصدق أن كتاب مونتسكيو الخالد (روح القوانين) الذى يعد من أنفس الكتب العالية هو بعينه الكتاب الذى أشارت لجنة أدبية من أصدقائه الاعلام النقاد فى عصره باهماله ؟! ان هذا الحادث الادبى التاريخى يجب أن يبقى عزاء المؤلفين النابهين الذين لاينصفهم أقرانهم عن قصور فى التقدير سببه الالفة أو غير ذلك ، ويجب أن يلهم الكاتب الذى يؤمن بنفسه ورسالته الثقة العميقة بعمله ، فلا يغفله اكراما لعيون النقاد الذين ربما لم يصلوا إلى مستوى ذكائه واشعاعه »

« يعد مونتسكيو أول أديب انسانى ثائر على البيئة المتعفنة التى خلقها حكم لويس الخامس عشر ، فان هذا الملك كما قيل ورث جميع مساوىء جده الأكبر دون أن يرث شيئا من محامدة فى السياسة والوقار ، فاذا بفرنسا تعانى شر أنواع الحكومات الاستبدادية وما يصحبها من ارهاق الضرائب ، وانعدام العدالة للفقراء وضياع حرية الخطابة والكتابة وذهاب الادارة الصالحة ، حتى أن النبلاء أنفسهم فقدوا اهتمامهم المأثور بالأدب ، وحتى أن الكنيسة ذاتها كادت تطرح اهتمامها برسالتها

الدينية ، وكان الجيش جائعا مسخرا مما أدى إلى اتباع انتصارات القرن السابع عشر بانهزامات القرن الثامن عشر لفرنسا . وفى هذا الجو بدأ مونتسكيو حملته الرائعة على هـــذه البيئة فى صورة رسائل عنوانها (الرسائل الفارســـية) على اعتبار أنها من أقلام سـائحين من الفرس وافدين على باريز ، وهى مكتوبة بأسـلوب رشيق فكه ، وفيهـا من الاوصاف العجيبة لمفاسد الحياة الفرنسية مالاتجود به الا يراعة عبقري ، ولم يكتف بالتحليل والوصف بل شفع ذلك بالمنشورات القيمة على علاج تلك الحالة . »

وصـدق ابو شـادى فى أن كتاب مونتسكيو لم يحظ باهـتمام وتقدير اعلام النقـاد فى عصره ولكن حظى ولا شك بتقدير القراء ، وكان له اثره فى توجيه الجماهير ، لقـد كان تأثير كتابات فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهم من أعلام ذلك العصر الاثر الاكبر فى جمهرة القراء ليس فقط فى فرنسـا ، بل فى أوروبا كلها ، وكان لهـا اثرهـا فى الروح الثورية التى جاءت بحقوق الفرد ، وكانت دعامـة الوصول إلى اقرار حقوق الانسان بعد قرابة المايتين من السنين .

وفى تغير الألوان التى طرقها ابو شادى فى نثره فى هـــذه الفترة الدراسية الاعدادية من حياته الادبية نلقى حديثه عن رجل من بواكير أعلام القصة هو (بوكاشيو) أو على مايسميه هو (بوكاتشيو) ، وفى هذا الحديث نلقى دقة مقارنة ابى شادى لابين لونين من انتاج القصاص الشاعر فان صاحبنا لم يكن شاعراً وان كان من الضرورى ان

يلحق به هذا الوصف يحكم ماله من قصيد — ولا بين انتاجه فى مرحلتين من مراحل حياته كما هي الحال فى حديث عن الشاعر جـــورج مروث وانما فى نقاشه لانتاج الشاعر فى لغتين مختلفتين اللاتينية والايطالية ولم يكن أبو شادى يعرف اللغتين على التحقيق .. ولكنه رجع فى حكمه إلى هذا من دراسته لانتاجه فى اللغتين منقولا الى الانجليزية .

والواقع الى غاية مايبدو لى ان القصـــاص الايطالى كان اقوى فيما كتب بالايطالية ، وتكمن قوته فى بساطة سرده ، وفى اقتطاعه حوادث وشخوص قصصه من صميم الحياة ، فلا افتعال ولا تعقيد . . . بل ان القارىء يتابع القصة وكأنه يرقب صورا كثيرة متلاحقـــة تمر أمام عينيه لحياة أناس يعرفهم ، وهو يضحك او يحزن .. ويسر او يغضب كما يفعل فى الحياة الحقيقية بمادياتها للحوادث التى تمر به من حياة الناس الذين يعرفهم لأنهم يعيشون فى البيئة التى يعيش فيها .

يقول أبو شادى عن ، بوكاتشيو) من مختارات عام ١٩٢٥

« كان بوكاتشيو كاتبا خصب الخيال بارع التعبير سخى الانتاج فى اللغتين اللاتينية والايطالية كما كان أديبا إنسانى الروح ولـكن كتاباته اللاتينية في دون مستوى تأليفه بالايطاليـة ومع ان شعره لم يكن خفيف الظل فيؤثر له أنه واضع وزن الموشح المعروف باسم Ottava Rima وقد تابعه فيه الشعراء ولكن مايعنينا بل مايعنى تاريخ الأدب الايطـــالى منـــه أنه كان أول ناثر فى اللغـــة الايطالية ، وتتجلى هذه العظمة بصفة خاصة فى كتابه الخالد

(الديكامبرون) وهو ما أريد الكلام عنه فى هذا المقال راجيا ان تتاح الفرصة لأحد أدبائنا القديرين لينقل قصصه إلى العربية كيفما كانت نظرات الجيل الحاضر من الوجهة الفنية الذوقية إلى تلك القصص الصادقه الصريحة . إذ لا يمكن أن تكون للغة العربية المنزلة اللائقة بها مالم تستوعب أشهر التآليف العالمية والا كانت فى حكم الميتة ، وما اضاع لغتنا المصرية (اللغة القبطية) الاقصرها على شؤون الدين وعدم نقل العلوم والآداب اليها فانصرف الناس عنها ، يضاف إلى ذلك تأثير الفتح الاسلامى ، واصبحنا الآن نصطنع لغة داخيلة بديلة عنها لسانا قوميا فاذا أهملنا هذه اللغة فما لها ولو ثقافيا ما آل سابقتها » .

كان هذا حديث أبى شادى منذ ثلاثين سنة عن ضروره نقل آثار الغرب إلى لغتنا العربية ، وقد عمل ابو شادي جاهدا فى هذا الميدان ونقل الكثير من قصيد الشعراء الانجليز إلى اللغة العربية نظماً ونثراً ثم عمل فى الاتجاه الآخر فكتب بالانجليزية ، كتب كتابه الأول الذي وسم بعنوان (At Ranbom) فنقل إلى قراء الانجليزية فى الغرب والشرق الكثير من الصور والآراء المصرية الخالصة القومية ، وكان نجاحه فى هذا عظيما ونال من تقدير الأدباء العالميين ما شجعه على المضى فى سبيله يكتب بالانجليزية سيما عندما نزل أمريكا مهاجراً بالاضطرار منفياً بالاختيار ، ولكن الحديث عن أبى شادى فى كتبه ودراساته التى نشرت بالانجليزية يتطلب دراسة من دراسات الأدب المقارن وهذه تتطلب فسحة فى الوقت لعلى أوفق اليها يوماً مالو كان فى العمر بقية .

إلى هنا أقف فى الحديث عن الصديق الألمعي احمد زكى ابو شادى الطبيب ، الفنان ، الشاعر ، الناثر ، النحال ، الاقتصادى ، المؤمن المتصوف ، الرجل المتعدد الصور الذى طرق بكتاباته شتى ضروب التحرير والكتابة فكان علماً فى كل ما جرى به قلمه وما حرره براعة

إلى هنا أقف فى الحديث عند حد هذه الصفحات وهى غاية ما استطعت فى الساعات الأولى عقب ان جاءنى نبأ وفاته ، كتبتها وأنا أحس بالألم المحض لفقده ، ولكنى مع هذا أقول بأن ابا شادى يستحق ان تكتب عنه عشرات المجلدات الدراسية لأدبه وانتاجه وهو واجب أولئك الذين نشأوا في مدرسة (ابولو) ولعلهم يفعلون

رحم الله ابا شادى وعزاء للناطقين بالضاد

إن تذوق معجزة القرآن البيانية الموسيقية — تلك السيمفونية الآلهيه الرائعة — يترتب على حسن معرفة العربية ولهذا وجب أن تكون قرينة للغة الأهلية فى كل قطر اسلامى ، وأن يكون لها اعتبار رسمى رفيع . وبعبارة أخرى ينبغى أن تكون اللسان الرسمى المشترك لأقطار العالم الاسلامى جميعا . ويجب أن تنزل منزلة الاحترام بل التقديس.

ابو شادى فى مقال (تدريس الاسلام)
مجلة صوت العروبة ابريل ١٩٥٥

4582

مطبعة ومكتبة الشعب
تونسية
س.ت ٢٧٥٤٢
٢٧٥٤٢
المعهد المصري ميدان السيدة زينب
ضياء الدين السباعي

WERT
BOOKBINDING
MIDDLETOWN, PA.
AUG. 82
We're Quality Bound

PJ7808
.S5xZ53
Princeton University Library
32101 060544408